إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.. الذى لا يهوي عن الهوي، إن هو إلا وحى يوحى، علمه شديد القوي، عندما يقول رسول الله صلي الله عليه وسلم في حديثه الشريف: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.. بهذا المنطق، والأسلوب الذى يسمي عند البلغاء العرب بأسلوب القصر والتوكيد، عند إضافة.. - ما - إلى أى قصر حكم أو فعل المتقدم على ما تأخر عليه.. أو قصر الحكم علي المحكوم به عليه.. والموضع هنا هو قصر البعثة المحمدية، الرسالة السماوية من كتاب وسنة علي تمام الأخلاق الإنسانية الحميدة لجموع البشر.. وما أنزل الكتاب بما فيه من فرائض وتشريع وأوامر ونواهي، وما جاء وثبت من السنة المشرقة إلا لتمام الخلق الحميد.. فلما نعت الله رسوله بقوله سبحانه وتعالى(أنك لعلي خلق عظيم..) الآية.. قال صلى الله عليه وسلم: أدبنى دبي فأحسن تأديبي.. وقالت عنه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: كان قرآنا يمشي علي الأرض.. فأوصى الله عبادة المؤمنين بالإقتداء به.. فقال سبحانه وتعالى: (ولكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر..) الآية.. عندما سؤل (ص) عن صحبته في الفردوس الأعلى قال (ص):أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا.. وقوله (ص) يأتي الرجل يوم القيامة بحسن الخلق لا يطاوله من قام الليل وصامه.. أو كما قال (ص).. فالإيمان بالله وحدة وعدم الشرك به، والإيمان بالقدر وباليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية والرسل لا تفريق بينهم، ومراقبة الله في الأعمال والأقوال، فإن لم نكن نراه فإنه يرانا هو الإحساس وحسن الخلق مع الله والنفس.. (وقضى ربك ألا تعبد إلا إياة وبالوالدين إحسانا..) الآية.لـه.إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر) الآية.. وفى الحديث: من لم تنه صلاته عن منكر كان يفعله فلا صلاة له .. وفى الصوم قال (ص) عن خلق الصائم:.. فإن شاتمه أحد أو سابه فاليقول أني صائم.. أي لا يرد عليه شتمه.. وفي الحج.. قال سبحانه وتعالي: (ومن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا جدال ولا فسوق في الحج) الآية.. والزكاة تطهير وتذكية للنفس والمال والعمل.. كما في قوله سبحانه: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتذكيهم بها..) الآية.. ومن صفات عباد الرحمن في دثامة الخلق الرفيع بين الناس قوله سبحانه وتعالي:(عباد الرحمن الذين يمشون علي الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما..) وفي آداب الزيارة وحقوق الإنسان وحرتيه في بيته:(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتي تستأنسوا وتسلموا على أهلها..) ثم (وأن قيل لكم أرجعوا فأرجعوا هو أقرب للتقوي..) وفي المجالس قوله سبحانه وتعالى (وإذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فأفسحوا يفسح الله لكم..) وفي الطريق..(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) وفي البيت (ليستأذنكم الذين ملكت أيالعشاء.لذين لم يبلغوا الحلم مالعشاء. مرات من قبل صلاة الفجر وفي حين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن صلاة العشاء ..)وفي المعاملة في الحياة قوله سبحانه في احد صفات عبادة الصالحين (وأمرهم شوري بينهم) وفي العهود (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود..) وفي رد البغي أو الظلم قال شأنه:(ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب)

وقوله: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عقبتم به..)ولا تعتدوا.. (إن الله لا يحب المعتدين) ويعرج بأن تعفوا وتصفحوا.. بل يشجع مبدأ العفا محفذاً بقوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم..)وفى النجوى أى الحديث فى جماعة حذر من الكلام السوء وقال سبحانه: (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين أمنوا..) وأمر بالكلام الطيب النافع إذ قال: (شاجوا بالبر، التقوى)

الخلاصة

أن كل ما أمر ه الله الخالق القدير الحكيم به فى كتابه من مفصل ذكرنا منه جزاً لمن يرغب فى الزيادة فاليرجع لكتاب الله القرآن الكريم، وإما المجمل فى قوله سبحانه.. (والذين أمنوا وعملوا الصالحات..) فجل الصالحات حسن والعمل السلوكى فيه من السلوك لصاحب الخلق الحسن.. ونكتفى فى هذا المقام بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾.

وما قوله صلى الله عليه وسلام: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه للنفسه.. إلا دفعا لعدم الغيرة والحقد والحسد والغل، والضغينة والعصبيى وحب الذات، التى متى أجتمع شئ منها فى النفس إلا حملتها على المعصية وسوء الخلق ولنا أن نراجع سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم من صدق حديثه الشريف: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).. الخلاصة إن الذين كله شريعته واو مره ونواهيه من كتاب وسنة تتمة لحسن الخلق مع الله ومع النفس ومع سائر خلقه.. عرف العرب ذلك فاعتنقوا وتحولو من شتات إلى امة كانت أقوى الأمم متى اعتصمت بحبل الله جميعا ولم يتفرقوا منه أو فيه أو عليه... أى اعتصموا بتمام الخلق الانسانى القويم ما ضعفوا إلا بمقدار ما يعدوا عنه..

لذا لا ينبغى إلا يكون الخلق الحسن والسلوك القويم هنا سمة الفرد والمجتمع والأمة المسلمة.. وأما النقص وما شاب السلوك من سؤ للخلق فى المجتمع الاسلامى، ما هو الغ سلوك طارئ وخطأ ينبغى الاعتذار عنه لله بالتوبة وطلب المغفرة.. وللعبد برد المظلمة والبعد سريعا عن الخطأ.. لما كان هذا الدين هو فطرة الناس جميعا عليها.. كانت سنته فى سائر خلقه.. فمن سار يهدية واقترب من خلقه على، وبقدر ما بعد عن فطرته هلك.. وهذا ما يفسر علو بعض الأمم غير الإسلامية أو هلاكها.. وقد انتبه لهذا شاعرنا العربى الحديث أحمد شوقى فقال: أنما الأمم الأخلاق ما بقيت.. فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا..